المحاضرة 03

عوامل نشأة الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

ما إن دخلت فرنسا الجزائر حتى بدأت في ممارسة سياستها الاستعمارية حتى تحكم قبضتها على الجزائر، وسعت لتجسيد مخططاتها من أجل ذلك، غير أنّها اصطدمت بمقاومة الشعب الجزائري، فمن المقاومات الشعبية إلى نشاط الأحزاب والجمعيات وصولا إلى الثورة التحريرية وجدت فرنسا نفسها أمام شعب لم ترهبه قوتها، فزادت من التعسف في سياستها واستخدمت أبشع الطرق والأساليب لإخضاع الجزائريين، من طمس للهوية وقتل ونهب وتجارب نووية. وقد عملت فرنسا على طمس مقومات الهوية الجزائرية، وباشرت حربًا شرسة على المساجد والمدارس القرآنية، وشيدت أول مدرسة للتبشير بالمسيحية، عام 1836.

كما سنت قوانين للفصل العنصري وصفت الجزائريين بالأهالي والمسلمين والعرب، وسخرتهم كخدم عند المستعمرين، بعدما سلبت أراضيهم.

ولما كان عنوان درسنا عوامل نشأة الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية سنحاول التركيز على الجانب التعليمي في الجزائر، وكيف انتقلت اللغة الفرنسية من لغة مستعمر إلى لغة التعليم وكيف وصلت إلى أقلام الأدباء والمفكرين الجزائريين.

1-التعليم في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي:

كانت الثقافة العربية و الاسلامية منتشرة –إلى حد بعيد- بالقطر الجزائري قبل الغزو الفرنسي عام 1830م، فكان بأنحاء الجزائر مدارس يرجع تأسيسها إلى القرن الرابع عشر الميلادي، و كانت بمثابة مراكز هامة للثقافة العربية و الاسلامية و يتولى التدريس فيها أساتذة على قدر كبير من العلم في فروع الفلسفة و الآداب و علم الكلام، و الفقه و علم الفلك، و مما يدل على ذلك أن أمراء الجزائر كانوا يفضلون اختيار مستشاريهم من هذه الطائفة المثقفة، و كانت مدينة «تلمسان» من أشهر المراكز العلمية في البلاد لدرجة أن الطلاب كانوا يؤمون حلقات الدروس على الأساتذة، و هم في كثرة عددية و يدل الاحصاء التاريخي الذي أجري في عام 1829م على أن البلاد الجزائرية كانت تضم أكثرمن ستمائة مدرسة و كتاب و معهد علمي، و هذا العدد لا يعد قليلا إذا نظرنا إلى أن عدد السكان في ذلك الحين مليونين و نصف المليون، و أن الثقافة " لم تكن منتشرة في نطاق واسع- في ذلك الحـ- في كثير من بلدان العالم و من بينها البلدان الأوروبية."

وهناك دلائل كثيرة على اتساع وانتشار الحركة الثقافية والتربوية، وعلى كثرة المعاهد والمدارس، وأيضا على أن الأمية قليلة في صفوف أفراد فئات المجتمع. ومن هذه الدلائل اعتراف الاحتلال الفرنسي بانتشار التعليم و ارتفاع مستواه في صفوف أفراد المجتمع الجزائري، و هذا دليل قاطع على بيان مدى ارتفاع الوعي الحضاري و تأثيره في الوعي

التربوي و التعليمي، حتى إن ظاهرة انتشار التعليم، و كثرة المعاهد في البلاد و هبوط نسبة الأمية بين الجزائريين، كان قد دفع برجال المخابرات العسكرية الفرنسية إلى الاعتراف بأن نسبة العرب الجزائريين الذين يحسنون القراءة و الكتابة في السنوات الأولى من الاحتلال كانت كبيرة. يقول الكاتب الفرنسي "مارسيل أغريتو" في كتابه "الوطن الجزائري" و في الفصل السابع من كتابه تحت عنوان (أثر الاستعمار في الثقافة و الدين) ما يلي: "كانت العلوم مزدهرة نسبيا قبل دخول الفرنسي إلى الجزائر عام 1830م. و على الرغم من تخلف العرب في مجال الحضارة فإن الميل إلى العلم كان متأصلا في النفوس، و كان في الجزائر عدد كبير من رجال الأدب يتمتعون بقسط وافر من الاعتبار لدى المجتمع...".

2-حالة التعليم بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر:

قام الاحتلال الفرنسي منذ اللحظة التي دخل فيها أرض الجزائر بتخريب كل النظم التي كانت موجودة قبل قدومه ابتداء بالتعليم واللغة العربية والدين الإسلامي ووصولا إلى التجويع والتشريد. وأما فما يخص التعليم فقد بدأ الفرنسيون بالبطش بالأساتذة والمعلمين واضطرهم إلى الهجرة اتقاء بطش الغزاة الذين لم يبقوا على دار من دور العلوم التي كانت ملحقة بالأضرحة والمساجد إلا ودمروها، ولم يولوا المكتبات والمخطوطات الثمينة أية رعاية فأهملوها ونقلوا معظمها إلى مكتباتهم في باريس. ومن بين المكتبات النفيسة التي امتدت إليها أيديهم بالتخريب، مكتبة الأمير عبد القادر التي كانت تعد أعظم مكتبة في القطر فالجزائري، وأخذت فرنسا حوالي 800 مخطوطة من الجزائر أثناء فترة احتلالها وتوجد هذه المخطوطات في مكتبة اللغات الشرقية بباريس حاليا.

يقول الجنرال)دو لا مورسي (**De la morciére** إنه " ... عندما نزلنا بمدينة الجزائر حولنا المدارس إلى مخازن و اسطبلات و سلبنا و نهبنا أملاك المساجد و المدارس"، وفي نفس الوقت و من أجل إخفاء الحقيقة المرة عن العالم أقامت فرنسا ثلاث مدارس واحدة في كل مدينة من مدن ثلاثة في الجزائر و هي (قسنطينة، الجزائر، وهران). وتحمل كل مدرسة على واجهتها هذه الكلمة بحروف فرنسية "la Medersa" وفي هذا النوع من المدارس التعليمية لا تتعدى ثقافة طلابها المرحلة الأولى من التعليم الثانوي في مصر، وهم يتخرجون ليُعيّن بعضهم في الوظائف الكتابية الصغيرة التي تتطلب معرفة اللغة العربية للتفاهم مع الناس.

بدأت الإدارة الاستعمارية بتعليم العدد الذي تحتاج إليه من أطفال الجزائر، ليخدموا مصالحها الاستعمارية في هذه البلاد، ويقوم هذا التعليم بتحويل أبناء الجزائر إلى فرنسيين، وبالتالي تنشئتهم تنشئة فرنسية وهكذا يكون لسانهم وتفكيرهم فرنسيا. ولقد خاطب الآميرال "كيدون" -الوالي الفرنسي على الجزائر-الآباء البيض سنة 1871م قائلا:" إنكم إذا سعيتم إلى استمالة الأهالي بواسطة التعليم وبما تسدون إليهم من إحسان تكونون قد قدمتم بعلمكم هذا خدمة جليلة لفرنسا، فليس في وسع فرنسا أن تنجب من الأطفال ما يكفيها لتعمير الجزائر، ولذلك من الضروري

الاستعاضة عن ذلك بفرنسة مليونين من أبناء البربر الخاضعين لسلطتنا. واصلوا عملكم بحنكة ودربة وحيطة، ولكم مني التأييد، وفي امكانكم أن تعتمدوا علي كل الاعتماد"

3-مراحل التعليم الفرنسي في الجزائر:

الواقع أن التعليم الفرنسي في الجزائر مر بثلاث مراحل أساسية، كانت في مجموعها تعكس تطور النظام الاستعماري الرأسمالي في الجزائر.

-المرحلة الأولى: من 1830 إلى 1943 حيث كانت فرنسا تطبق سياسة تعليمية تقوم على طمس معالم التعليم العربي وزرع الجهل بين أفراد هذا المجتمع، أما الأقلية التي التحقت بذلك التعليم فتحمل فكر الحضارة الغربية.

-المرحلة الثانية: من 1944 إلى 1957، فهي مرحلة بدأت سنة 1944 بإعداد السلطات الاستعمارية لمخططات التعليم في الجزائر وذلك بعد ضغط الحركات الوطنية التي ظهرت خلال المرحلة الأولى وعلى رأسها جمعية العلماء المسلمين.

-المرحلة الثالثة: من1958إلى1962سنة الاستقلال، وتعتبر سنة 1958 مهمة جدا لأنها سنة وضع خطة أو مشروع قسنطينة المشهور.